أحروب طاحنة أم تحديد للنسل ؟

هل زيادة السكان تؤيد حقيقة في طلب التوسع

موقف العلم والحضارة بين الرأيين

اذا زاد عدد السكان في بلد من البلدان زاد عمرانهُ ولكن الى حدٍّ ما . لان كثرة الناس في البلاد تؤدي الى اتساع نطاق العمل والعناية باستنباط ثروة الارض ورفع مستوى المعيشة . لذلك تعنى الحكومات التي تحكم بلداناً مترامية الاطراف قليلة السكان بدعوة الناس الى الهجرة اليها وترغيبهم في ذلك . ولكن لا يلبث ازدحام السكان ان يبلغ حدًّا تصبح الزيادة بعدهُ خطراً على البلاد . لانها تخفض مستوى المعيشة بدلاً من أن ترفعهُ . ويكثر طلاب العمل حتى يزيدوا على ما تتسع لهُ المعامل والمتاجر . فترتفع بينهم مبادىء الشيوعيين والفوضويين ويكون المرتع خصباً

وقد يتعذر تعيين هذا الحدّ الفاصل بين الحالين . لانهُ يختلف باختلاف البلدان وما بلغتهُ من الرقي الصناعي والتجاري والزراعي . فبلاد في عرف الكنديين تحسب غاصة بالسكان يحسبها الصينيون قليلتهم لان هؤلاء تعودوا ان يروا ٤٠٠ نفس أو اكثر مزدحمين في بقعة من الارض مساحتها ميل مربع او اقل

ورغماً عن ذلك اجمع علماء الاجتماع والاقتصاد على وجود هذا الحدّ في أحوال معينة فيبلغ عدد السكان عندهُ مبلغاً يمكنهم من التمتع بارقى وسائل العمران واعلى مستوىً اقتصادي في معايشهم . وهذا العدد يتغير في كل بلاد بتقدم الحضارة فيها . فلو ان سكان الولايات المتحدة الاميركية كانوا منذ مائة سنة ١١٧ مليوناً — كما هم الآن — لما كان ملاك الثروة والرخاء مرفرفاً فوقهم كما هو مرفرف الآن . وبلجيكا التي تكاد تنص بكثرة اكثر رخاء من بلاد فارس ، مع ان ٦٥٩ نفساً من سكان الاولى يقطنون في ما مساحتهُ ميل مربع واحد من الارض يقابلهم ١٦ في الثانية

فاذا كانت البلدان المزدحمة بالسكان غير منتظمة انتظاماً اقتصاديًّا دقيقاً وعرضة في كل آن لانقلابات سياسية خطيرة لم يشعر الشعب شعوراً عامًّا بازدحامه ووجوب توسعه . لانهُ لا يجد متسعاً كافياً من الوقت للانصراف الى العمل والوقوف على ان نطاق العمل في بلاده لا يتسع لجميع افراد الامة لكثرتهم . فاذا انتظمت هذه البلدان

وامتدَّ فوق ربوعها رواق السلام والطمأنينة . ادرك افراد الشعب ان الارض لا تتسع لهم ليجنوا من عملهم فيها ما يؤهلهم لمكانة بين الشعوب كمكانة جاراتهم فينظروا نظرة الطمع الى البلدان التي يمكن ان تكون منفذاً لهم

ايطاليا واليابان

والمملكة الايطالية اشهر مثل على هذه الحالة الاخيرة في اوربا . ففي ايطاليا شعب عددهُ ٤٢ مليوناً يقطنون بلاداً مساحتها ١٧٨ الف ميل مربع اي بمتوسط ٢٣٧ نفساً لكل ميل مربع . فازدحام السكان في ايطاليا يبلغ نحو نصف ازدحامهِ في بلاد البلجيك . ولكن انتظام ايطاليا الاقتصادي وارتقاءها من هذه الناحية لا يقاسان بانتظام بلجيكا وارتقائها . وسكان ايطاليا يزيدون ٤٠٠ الف نفس كل سنة . فعلى مرافق ايطاليا الصناعية ونظامها الاقتصادي ان يرتقيا ارتقاء سريعاً اذا شاءت الحكومة الايطالية ان تحفظ مستوى المعيشة في بلادها على ما هو الآن وان تجد عملاً لابنائها الذين يزيدون كل سنة على ما تقدم . ولما كانت لا تملك في بلادها مناجم غنية بالفحم والحديد ومنابع للنفط وغيرها من موارد الثروة الطبيعية فان ارتقاءً كهذا ليس في حيز المحتمل . ومهما بلغ من سهر الحكومة الايطالية على تنظيم صناعاتها ومرافقها فلا يمكنها بحال من الاحوال ان تبلغها درجة من السعة والرقي تكفي زيادة السكان السنوية

فلما وجدت ايطاليا نفسها تكاد تنفجر من كثرة السكان طلبت ارضاً تحملها منفذاً للملايين من ابنائها وقد قال السنيور موسوليني في ذلك «يجب على ايطاليا ان تتوسع والا انفجرت» ولعل هذه الفكرة هي اقوى العوامل التي تكيف سياسة ايطاليا الخارجية المتصفة بالقوة والعدوان لانها تقنع الايطاليين بعدالة مطالبهم للتوسع في البلدان المجاورة لهم كالبانيا التي لا يقطن في الميل المربع منها الا ٤٨ شخصاً ويوغسلافيا التي اصبحت تخشى على بعض شواطئها المحاذية للبحر الادرياتيكي من اتساع النفوذ الايطالي . حتى فرنسا نفسها لم تسلم من وعيد «الدوتشي» باسترجاع نيس وساڤوي عنوةً . وقراءة الصحف يذكرون ان تركيا الكمالية اصبحت ذات يوم وهي على قدم الاستعداد للحرب لتدفع عن بلادها هجوم الجيوش الايطالية

وفي الجهة المقابلة لايطاليا ، في الشرق الاقصى ، دولة فتية قوية ترى نفسها في حالة تشبه حالة ايطاليا الآن من حيث زيادة السكان وطلب التوسع — نريد بها دولة اليابان

فسكان اليابان يبلغون ستين مليوناً يقطنون ارضاً مساحتها ١٤٨٧٥٦ ميلاً مربعاً

اي بمتوسط ٤٠٠ نفس للميل المربع الواحد . وسكان اليابان يزيدون ٦٠٠ الف نفس كل سنة ومستوى المعيشة فيها يعلى ما هو معروف اقل منهُ في ايطاليا . وحكومتها نفسها تتذرع بهذه الحجة لطلب التوسع وللاعتراض على مساعي الاميركيين والاستراليين والكنديين لمنع اليابانيين الاستيطان في بلادهم

يقول اليابانيون : ان في هذه البلدان — اميركا واستراليا وكندا — ملايين من الفدادين يمكن ان يقطنها ملايين من الناس ويعيشوا فيها عيشة ثراء ورخاء ولكن البيض لا يستسلمونها ويمنعوننا من الدخول اليها . فاليابان وايطاليا متفقتان على ان كل بلاد يزداد عدد سكانها حتى لا تسعهم يحق لها ان تطلب التوسع والاستعمار لتمهد لهم بلاداً يهاجرون اليها. فايطاليا تحاول ان تقنع بعض الدول الاوربية ان يتنازلوا لها عن بعض مستعمراتهم الافريقية وفي الوقت نفسهِ شرعت تبسط نفوذها السياسي والاقتصادي على البلدان المجاورة لها . واليابان تتوسع في اقامة الدليل على صحة نظرها وتجعل من البرهان محوراً للخلاف بين الشعوب البيضاء والشعوب الملونة (اي الصفراء وغيرها) وتقول ان الشعوب الملونة مهددة بمجاعة عظيمة اذا لم يهاجر ابناؤها الى بلدان يستطيعون ان يطلبوا الرزق فيها

نتيجة التوسع المبني على كثرة المواليد

ويُرَدُّ على قول اليابان بان اكثر البلدان المرغوب فيها للتوسع والاستعمار هي في حيازة احدى الدول الآن وان لابناء هذه الدول في هذه البلدان حقوقاً ومصالح لا بدَّ من المدافعة عنها ولو لم تكن مزدحمة بالسكان ازدحام اليابان او الصين او ايطاليا. فطالبة هذه الدول بان تخلي بعض هذه البلدان بعدما انفقت فيها بدرات من الاموال وبعد ما هاجر اليها الوف من ابناء الامم التي استعمرتها امر خارج عن نطاق السياسة العملية

اضف الى ذلك ان ابناء البلدان غير المزدحمة بالسكان لا يقرّون بعدل المذهب القائل ان البلدان الخاصة بالسكان يحق لها طلب التوسع لمجرد انها مزدحمة لان هذا المذهب عرضة للنقد الشديد وقد تنتج عن تطبيقهِ نتائج اقتصادية وسياسية خطيرة . ذلك انهُ اذا كان يحق لليابان ان تبغي التوسع متى زاد عدد سكانها حتى ضاقت بلادها بهم فلها الحق اذاً ان تطلب التوسع في بلدان اخرى متى ازدحم ابناؤها في البلدان التي تستولي عليها . فاذا استمرَّ الامر كذلك من غير رادع اصطدمت اليابان يوماً ما بامة اكثر عدداً واوفر ولداً منها. ولنفرض انها توسعت في بلدان اسيا الشمالية فلا بدَّ

ان يأتي يوم تضطر فيه بالصينيين او الهنود وهم كما تعلم أوفر الشعوب ولداً . فعليها حينئذ ان تزيد متوسط المواليد السنوي في شعبها حتى تتفوق عليهم او ان تفراجع تاركة الارض للشعب الذي يفوقها في كثرة العدد وفرة النسل

هذا هو القياس النهائي لصحة هذا المذهب . انهُ يعني ان حق شعب من الشعوب في الحياة والتقدم مرهون بعدد مواليده . اما مآثرهُ في العلم وأما آياتهُ في الفن واما تعاليمهُ الدينية والفلسفية فلا عبرة بها ولا قيمة لها . فاذا تمَّ لهذا الشعب ما تمنى وجرَّد نساءهُ عن كل معنى روحي نبيل وجعلهنَّ وسائل للتوليد لا غير وملأ الارض بابنائه — ماذا يفعل حينئذٍ ؟ أيحدّد عدد مواليده فيتجرَّد بذلك عن الصفة الواحدة التي بنى عليها حقهُ في الحياة ؟

لكن بعض علماء الاقتصاد وعلى رأسهم مالتوس واتباعهُ يقولون ان الامراض والمجاعات والحروب تقف حدوداً دون تحقيق هذا المذهب على الوجه الذي ذكرنا . فان كل عمل تعمله الامم التي تؤمن بهذا الرأي لتحقيق رأيها لا بدَّ ان يلقى مقاومة شديدة اي لا بدَّ ان تقف الحرب في وجهه سدًّا منيعاً فاذا فازت في المعترك وتمكنت من التوسع على ما تريد وصار ابناؤها في جميع الاقطار لكثرتهم لا يلبثون ان ينازع بعضهم بعضاً في طلب القوت . فالسعي لتحقيق هذا الرأي يهدّد العمران الشرقي والغربي باخطار جسيمة ولا بدَّ من البحث عن سياسة اخرى تشمل جميع الامم . اذ لا يستتب السلام بينها حتى تجري كل حكومة على مبدإ تحديد النسل فلا يزيد عدد المواليد عما تستطيع الارض ان تمحضهُ منها

هل المسألة جنسية ؟

فيقول اليابانيون : بعد ما سيطر الجنس الابيض على اميركا الشمالية والجنوبية واستراليا وافريقية اخذوا يقولون : لتحتفظ كل امة بما تملكهُ الآن . ونحن لا نرى وجهاً للعدل في ذلك . فالشعوب والاجناس متساوية كلها والاجناس الصفراء يحق لها ان تملك من الارض ما يتناسب مع عدد سكانها بالنسبة الى الامم البيضاء

فيجيبهم انصار المذهب المعارض : هذه هي حجتكم الاولى . فكانكم تقولون ان كل شعب يحق لهُ ان يسيطر على مساحة من سطح الكرة تتناسب مع عدد مواليده . فاذا كان اتفاق من الاتفاقات الدولية يحتوي على شيء من عدم الانصاف فعدم الانصاف هذا يزيد اذا حاولنا اصلاح هذا الاتفاق بواسطة الحرب . فوجوه الظلم وعدم الانصاف

يمكن اصلاحها وازالتها رويداً رويداً ولكن طلب التوسع والحرب يخلقان دائماً اسباباً جديدة للشكوى والتظلم

هذا اذا سلمنا ان هناك وجهاً للشكوى. ولكن هل هناك وجه للشكوى والتظلم — لاحق بالامم الصفراء ؟ اذا ازلنا ما تشكو منهُ الصين من سيطرة الامم الاوربية واليابان عليها — وهذا زائل يوماً ما — فمَ تشكو الامم الصفراء ؟ اتشكو من سيطرة الشعب الابيض على اميركا الشمالية واميركا الجنوبية وافريقية واستراليا ؟ فقد كان للصين والهند حضارة زاهية زاهرة منذ ثلاثة آلاف سنة وكان لليابان عمران قديم يعود الى اثنين وخمسمائة سنة . اما الحضارة الاوربية الحديثة فلم ينقض عليها اكثر من الف سنة . ففي القرون التي كانت فيها اوربا تتخبط في ظلام الهمجية والجهل والفوضى هل سعى ابناء الجنس الاصفر للسيطرة على هاته القارات ورفع لواء الحضارة — حضارته — فوق ربوعها؟ ولولا الشعب الابيض من يدري اي زمن كان انقضى قبلما تمكن الهنود والصينيون واليابانيون من الاتصال بهذه البلدان ؟ واذا اصبح العالم غداً وقد نمى كل ما استنبطهُ واكتشفهُ الجنس الابيض عن بناء السفن وتسييرها فكم يمضي من الوقت على اهل اليابان والصين والهند قبلما يتمكنون من الاتصال بهذه القارات واستعمالها كمنفذ لشعوبهم المزدحمة

زيادة السكان ومعيار الحضارة

فالشعب الابيض الذي نشأ في اواسط آسيا واستوطن غرب اوربا صرف همهُ للسيطرة على عناصر الطبيعة واخضاعها لمطالبهِ . ففاز بشيء من ذلك واخذ يبني عليهِ حضارتهُ. ولم يلبث ان صحت لديهِ حقيقة اساسية: ذلك ان حضارة لا تفسح مجال التقدم لكل فرد من افراد المجتمع هي حضارة غير ثابتة الاساس مقضي عليها بالخذلان. وان هذا المجال لا يتسع ما زال شبح الجوع والمرض والموت محوماً فوق البيوت . فالاساس الاول الذي تقوم عليهِ الحضارة الغربية هو استقلال الفرد وحسن حالتهِ الاقتصادية

ولكي يحقق هذه الامنية اخضع ابناؤه قوى الطبيعة لمطالبهم فتمكنوا من جوب البحار والاتصال بقارات مجهولة واستنباط ما فيها من الثروة المطمورة ولاول مرة في التاريخ تمكن جانب من النوع البشري من رفع مستوى معيشتهِ الى درجة مكنتهُ من طلب غايات الحياة العليا . فلما وصل الى هذه الدرجة من الرقي وجد نفسهُ مثاراً لغيرة غيره من الشعوب الذين كانوا قد صرفوا همهم الى امور اخرى. وجاءت هذه الشعوب تطالبهُ بحقها في الانتفاع بثمرة جهودهِ . مع ان الزمن الذي قضاهُ الاوربيون في ردم

المستنقعات وري الصحارى واستثمار خيرات الارض والسيطرة على قوى الهواء والماء قصته الشعوب الاخرى صارفة همها الى زيادة مواليدها. فكانت النتيجة ان حالة الفرد الاقتصادية في الحضارة الاوروبية ما زالت في ارتفاع لقلة السكان وزيادة المنتج وحالة الفرد الاقتصادية في الحضارات الاخرى ما زالت في انخفاض وانحطاط لزيادة السكان وقلة المنتج من خيرات الطبيعة والارض. ومع ذلك فهذه الشعوب تقول نطلب المساواة ويجب ان نقتسم الارض التي كشفتموها

والرد على ذلك قائم على ان خير الحضارة لا يقضي باملاء الارض القليلة السكان بالملايين الذين لا يجدون متسعاً لهم في بلادهم. بل يقضي بتحديد النسل في هذه البلدان الى درجة يتمكن عندها العلم والحضارة من جعل كل فرد من افراد هذه الشعوب يتمتع باعلى مستوى اقتصادي لا مندوحة عنه كركن من اركان الحضارة العالية المثلى

ولا يعني هذا الحل ان اليابان يجب ان تواجه مجاعة عامة في بلادها اذا لم تتمكن من التوسع . فها هوذا شعبها يزداد كل سنة بمتوسط ١٤ في الالف من غير ان يواجه مجاعة في بلاده المزدحمة بالسكان . فاذا زاد عدد المواليد عن هذه النسبة ازداد ازدحام السكان واشتدت مزاحمتهم على موارد الرزق وحينئذ تواجه اليابان خطر مجاعة عامة . فالامر الذي يجب ان يعالج في اليابان هو هذا المتوسط — متوسط المواليد — العالي والا اصابتها المجاعة كما هو حادث في الصين الآن لكثرة الناس وقلة الرزق

وفي هذه الحال لا يمكن ان يكون التوسع والاستعمار علاجاً للحال. فعلماء الاجتماع مجمعون على ان الهجرة لا تخفف الازدحام الناشىء عن كثرة المواليد. لان مهاجرة جماهير غفيرة من بلد الى آخر لا تبدأ قبلما يكثر السكان في البلد الاول كثرة تجعل طلب الرزق صعباً . حينئذ فهجرة جمهور كبير لا تخفف الضغط لان الشعب يملأ الفراغ الذي خلفته ويستمر على ذلك حتى يصيبه وباء او تفشو فيه مجاعة او يباد ابناؤه في حرب

فالتوسع اذاً لا يرفع مستوى المعيشة في البلد الذي يُهجَّر ولا هو سبب سياسي مقبول للاستيلاء على بلدان تخص شعوباً اخرى . واذا كان مستوى المعيشة في البلد المهاجَر اليه عالياً خفضوه بكثرتهم وعدم مقدرتهم على الانتاج . وعليه يجب على حكومات الارض ان تصرف النظر عن توزيع البلدان حسب عدد السكان وان تهتم بحصر عدد كل شعب على ما يمكن ان تتسع له بلاده اتساعاً يمكنه من ان يعيش فيه في رخاء ورفاهة . آه عن مجلة « العالم اليوم » بتصرف